الحقائق المخفية في فقه الدعوة
عند شيخ الإسلام أحمد بن تيميّة

إعداد:

د. أحمد محمد حمود عبيد

(أستاذ مساعد في جامعة الملك عبد العزيز – كلية الآداب والعلوم الإنسانية– قسم الدراسات الإسلامية)

(التخصص: العقيدة والدعوة)

المستخلص

عني البحث بإبراز طريقة شيخ الإسلام ابن تيمية في ميدان فقه الدعوة ، حيث إن هذا الفن هو محط اختيار الداعية نجاحا أو فشلا في حياته الدعوية.

وكم من الذين زعموا أنهم دعاة أخفقوا في مهامهم، وكان من أسباب ذلك عدم فهم الواقع المعاش فمشوا خلاف المعهود، فأخطأوا هدفهم، فكانوا كمن يسقي الشجرة من أغصانها بدل أن يسقيها من جذورها.

والناس اليوم، وفي كل يوم هم بحاجة الى العالم الإيجابي لا السلبي، بحاجة الى العالم العامل الذي يعيش الأحداث، ويعمل على علاج مشاكل الناس، وحل معضلاتهم. بحاجة الى العالم الذي يشبه الشمعة؛ يضيء للآخرين حتى لو أدى ذلك الى ذوبان نفسه.

قضى حياته رحمه الله في مقارعة الباطل والعمل على إحقاق الحق.

لم يداهن السلطان ولم يُراء أصحاب الغنى والمال، ولم تغرّه دنيا زائفة.

وكان له مواقف تعبر عن نظرة ثاقبة للأمور، وفهم عميق لمقاصد الشريعة، فهو من دعا الى تغيير أسلوب الدعوة نظرا لتغير الزمان والمكان، وهو الذي قال لمن أراد نصيحة جند التتارالذين كانوا يشربون الخمر، قال له: "دعهم في سكرهم، لأنهم إذا صحوا قتلوا المسلمين".

وكان من فهمه لفقه الدعوة قوله: "يترك العمل المستحب إذا كان في فعله فساد راجح على المصلحة"،

وأعطى بذلك مثلا من النبي صلى الله عليه وسلم عندما قال لعائشة رضي الله عنها: "لولا أن قومك حديثو جاهلية لنقضت الكعبة وبنيتها على قواعد إبراهيم".

وكان شيخ الإسلام لا يرى من المسلمين بدار الحرب أو بدار الكفر أن يخالفوا أهل البلاد في الهدي الظاهر، بل قال: "قد يستحب للرجل أو يجب عليه أن يشاركهم أحيانا في هديهم الظاهر إذا كان في ذلك مصلحة للمسلمين".

وهو الذي قال بأن فعل المرجوح وترك الراجح أحيانا لمصلحة راجحة، قد يكون في مواطن هو الأفضل.

وهو الذي قال بجواز تقليد مذهب من المذاهب الفقهية الأربعة، لمن لا يجيد فهم الأدلة الشرعية.

وهو الذي استنكر أشد الاستنكار لما يجري من تقاطع نتيجة الخلاف في الفروع الفقهية، وقال: "هذا جهل لأن الخوض فيها يسير".

وخطّأ رحمه الله المتكلمين في معالجة قضايا العقيدة، فقال عن هؤلاء: "فلا الإسلام نصروا، ولا الأعداء كسروا" الى آخر ما هنالك من مواقف مضيئة في فقهه رحمه الله.

رأيت الاضاءة عليها بعد أن وجدت أن كثيرا منها تعمد البعض إخفاءه، والابتعاد عنه، وسلطوا الأضواء على مواقف توحي بالشدة أحيانا، وبالتطرف أحيانا أخرى.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على قائد الغر المحجلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) (النساء ١)

لقد شرف الله تعالى العلم وأهله، إذ قرنهم مع ذاته العلية، وملائكته الكرام. قال تعالى: (شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ) (آل عمران ١٨)، ورفع من درجاتهم بين المؤمنين بقوله: (يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (المجادلة ١١). وميّزهم عن غيرهم من سائر البشر، فقال تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ) (الزمر ٩). وعليهم قصرَ فهم الأمثال، واستخلاص العبر، قال تعالى: (وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ) (العنكبوت ٤٣).

أمّا ثناء المصطفى صلى الله عليه وسلم عليهم في سنته العطرة، فكثير جدا، وحسبنا ما رواه أبو الدرداء رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من سلك طريقا يبتغي فيه علما، سلك الله به طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات، ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإنّ فضل العالم على العابد، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء.

إنّ الأنبياء لم يورثوا درهما ولا دينارا، وإنما ورّثوا العلم، فمن أخذ به، أخذ بحظ وافر". [1]

والعلم في الإسلام لم يكن يوما للتكسب، أو نيل العطايا، وإنما كان خالصا لله، لذلك أحبّ الناس العلماء، وأجلهم السلاطين، وخافهم البعض منهم لصدعهم بالحقّ، بحيث لا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا سطوة حاكم، فيقولون الحقّ، وبه يعملون.

أما الذين يخافون قول الحق من أجل منصب، أو خوف على وظيفة، فهؤلاء في قلوبهم مرض. يقول شيخ الإسلام رحمه الله: "لن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه"، وأضاف: "فإنّ رجلا شكى إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة فقال له: "لو صحّ قلبك، لم تخف أحدا!"[2].

بهذه الصفات وصل العلماء إلى المكانة المرموقة فكانوا نجوم هداية لأمتهم، وكانوا المحركين لهمم شعوبهم في أقوالهم وأفعالهم.

وكان من هذا الركب المبارك من العلماء الربانيين شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية – رحمه الله– فكان عالما عاملا ورعا مجاهدا جريئا في الحقّ، لا تأخذه في الله لومة لائم. من هنا كان اختياري لهذا لعالم الفذ.

إنّ المتابع لشخصية لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله يجد أنها مجموعة رجال في رجل واحد، ففي علم العقيدة كان عالما بحرا ومدافعا عن عقيدة السلف، وفي الفقه كان فقيها بارعا مستنبطا للأحكام من أدلتها، وفي الأصول كان أصوليا، وفي التفسير كان مفسرا، وفي الحديث كان محدثا، وفي علم الأديان والفرق لم يوجد من يجاريه في عصره. وفي مناقشة الفلاسفة والمناطقة وبيان باطلهم كان صاحب الحجة والبرهان، وفي مواجهة أصحاب

---

[1] - أخرجه الترمذي ٢٦٨٢، وأبو داود ٢٦٤١، وابن ماجه ٢٢٣.
[2] - الأعلام العلية ص٧٢.

الصليب ومن حاول الطعن في دين الإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم كان عليه سيفا مسلولا، أما مواقفه مع الفرق الباطنية وكشف زيفهم وحقدهم على الإسلام وأهله فحدّث ولا حرج.

أمّا في فقه الدعوة وأساليبها فكان داعية ذا خبرة عالية بنظر الى أبعد من عصره الذي عاش فيه.

مولده ونشأته:

اسمه ونسبه: هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن تيميه النميري الحرّاني، ثم الدمشقي الحنبلي.[1]

سبب تسميته بابن تيميه: نسبة إلى أم جده محمد كانت تسمى تيمية وكانت امرأة فاضلة واعظة.[2]

أما نسبته (النميري) نسبة الى قبيلة (بني نمير) وهي من القبائل العربية الأصيلة وهذا خلاف ما ذكره الشيخ محمد أبو زهره بأن شيخ الإسلام كان كرديا [3] وأثبت هذا النسب، ابن ناصر الدين الدمشقي في كتابه (التبيان لبديعة البيان) [4] أما نسبته الحراني: فهي المنطقة التي ولد فيها شيخ الإسلام وتقع على الحدود بين سوريا وتركيا بالغرب بالقرب منها منطقة تسمى اليوم (أورفة). [5]

---

[1] - الذيل على طبقات الحنابلة (٣٨٧/٢)
[2] - العقود الدرية ص٢٤
[3] - شيخ الإسلام: إبراهيم العلي ص٣٦
[4] - التبيان، الطبقة الحادية والعشرين وهو مخطوط في جامعة أم القرى برقم ١٧٦
[5] - الأعلام العلية ص١٦

وكانت ولادته على الراجح يوم الاثنين في العاشر من ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة ٦٦١هـ.[1]

سبب تلقيبه (بشيخ الإسلام):

مشايخ الإسلام هم الأئمة الأعلام المتبعون لكتاب الله المقتفون لسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) قائمين بما فرض الله عليهم متمسكين بما ساقه الله من ذلك إليهم متواضعين لله، خائفين من عثرة اللسان، لا يدّعون العصمة، ولا يفرحون بالتبجيل، عالمين أن الذي أوتوا من العلم قليل. فمن كان بهذه المنزلة حكم بأنه إمام واستحق أن يقال له شيخ الإسلام[2] ويعرفه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، (بأنه كلّ من حاز على درجة كبيرة عالية من العلم بالكتاب والسنة وفي الفضل والصلاح، والقدوة، وكان مرجع المسلمين في العلم وشؤون الدين).[3]

نشأ شيخ الإسلام في عائلة متدينة اشتهرت بالعلم والصلاح، وكان والده عبد الحليم مفتيا وقد اشتهر في عصره بغزارة علمه وقوة حافظته، ومكانته العالية بين علماء عصره، كما كان جده عبد السلام فقيها ومحدّثا[4] وله من المصنفات كتاب (الأحكام الكبرى) وكتاب (المنتقى في أحاديث الأحكام) والذي يعد أصل كتاب نيل الأوطار للشوكاني.

---

[1]- العقود الدرية ص٢

[2] - الرد الوفر ص٥١ – ابن ناصر الدين

[3] - العلماء العزاب ص٤٦ – عبد الفتاح أبو غده.

[4] - البداية والنهاية ٧٩/١٤ ، الدرر الكامنة ١٥٩/١

لقد أثرت العائلة الكريمة في تكوين شخصية شيخ الإسلام العلمية وتوجيهه الى طلب العلم وتشجيعه على الازدياد منه والنهل من منابعة الصافية، فمنذ حداثة سنه كان نهما في طلبه للعلم، لا يمل من المطالعة، ولا يكل من البحث.[1]

كان يحضر المحافل في صغره ويناظر ويفحم الكبار، ويأتي بما يتحير منه أعيان البلد في العلم، فأفتى وله تسع عشرة سنة، وشرع في الجمع والتأليف منذ ذلك الوقت، توفي والده وكان من كبار الحنابلة وأئمتهم، فدرّس بعده بوظائفه، وله إحدى وعشرون سنة واشتهر أمره، وبعد صيته في العالم[2].

وكان ممن حضر درسه الأول كبار علماء دمشق وفضلاؤها مثل قاضي القضاة بهاء الدين بن الزكي الشافعي، والشيخ تاج الدين الفزاري شيخ الشافعية، والشيخ زين الدين ابن المرحل، والشيخ زين الدين بن المنجا الحنبلي وغيرهم من كبار العلماء[3].

ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله أسلوب شيخ الإسلام قال: كان يتكلم على المنبر على طريقة المفسرين مع الفقه والحديث، فيورد في ساعة من الكتاب والسنة واللغة والنظر ما لا يقدر أحد على أن يورده في عدة مجالس، كأن هذه العلوم بين عينيه يأخذ منها ما يشاء ويذر منها ما يريد[4].

أهم شيوخه:

---

[1] - الذيل على طبقات الحنابلة.
[2] - العقود الدرية ص٥ للحافظ الذهبي. تاريخ الوردي ٤٠٦/٢
[3] - البداية والنهاية ٣١٣/١٣ . ذيل طبقات الحنابلة ٣٨٧/٢
[4] - الدرر الكامنة ١٥٣/١

١- الشيخ الإمام شمس الدين أبو محمد عبدالرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي الحنبلي. من أهم تصانيفه (كتاب شرح المقنع) وكان شيخا لابن تيميه في الحديث. كما أخذ عنه الفقه والأصول [١] توفي عام ٦٨٢هـ .

٢- الإمام أحمد بن إبراهيم بن عبدالغني السروجي الحنفي. شارح كتاب الهداية. توفي سنة ٧١٠هـ . [٢]

٣- الإمام عبدالله بن محمد بن عطاء بن حسن الأذرعي الحنفي[٣] ولد ٥٩٥هـ وتوفي ٦٧٣هـ

٤- الإمام المقرئ إبراهيم بن أحمد بن اسماعيل بن فارس التميمي السعدي ولد ٥٩٦هـ وتوفي ٦٧٦هـ [٤].

٥- الشيخة الصالحة أم الخير ست العرب بنت يحيى بن قايماز بن عبدالله التاجية الدمشقية الكندية [٥] المولودة عام ٥٩٩هـ - المتوفاة في ٦٨٤هـ .

٦- الشيخة أم العرب فاطمة بنت أبي القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله بن الحسين بن عساكر، وهي بنت الحافظ مؤرخ الشام أبي القاسم بن عساكر، المولودة سنة ٥٩٨هـ والمتوفاة ٦٨٣ هـ [٦].

---

[1] - شذرات الذهب ٥/ ٣٧٦ - الأعلام للزركلي ٣٢٩/٣ - مرآة الجنان ٤/ ١٧٩

[2] - الدرر الكامنة ٩٦/١ - معجم المؤلفين ١٤٠/١

[3] - البداية والنهاية ١٣/ ٢٨٩ - الفوائد البهية ص٩٠

[4] - شذرات الذهب ٥/ ٣٥١ - العبر ٣٣١/٣

[5] - العبر ٣٥٥/٣ - النجوم الزاهرة ٢٦٨/٧

[6] - شذرات الذهب ٣٨٣/٥

٧- الشيخة الصالحة أم محمد زينب بنت أحمد بن عمر بن كامل المقدسية سمع منها سنة ٦٨٤هـ وتوفيت سنة ٧٢٢هـ [1].

أشهر طلابه:

١- الفقيه الحنبلي محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي ثم الدمشقي المشهور بابن قيم الجوزية صاحب التصانيف النافعة توفي ٧٥١هـ [٢].

٢- الإمام الحافظ المؤرخ محمد بن أحمد بن عثمان التركماني الذهبي الدمشقي المتوفي عام ٧٤٨هـ عالم التاريخ الموسوعي صاحب كتاب تاريخ الإسلام، وسير علام النبلاء، وميزان الاعتدال [٣] وغيرها.

٣- الإمام المحدث والفقيه محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن قدامه المقدسي الحنبلي صاحب كتاب: الصارم المنكي، والعقود الدرية المتوفي ٧٤٤هـ [٤].

٤- الإمام المحدث جمال الدين يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف المزي الشافعي صاحب كتاب تهذيب الكمال في أسماء الرجال توفي سنة ٧٤٢هـ [٥].

---

[1] - مجموع الفتاوى ١٢٠/١٨

[2] - شذرات الذهب ١٦٨/٦

[3] - البداية والنهاية ١٩٤/١٤ – شذرات ١٥٣/٦

[4] - الذيل على طبقات الحنابلة ٤٣٦/٢

[5] - تذكرة الحفاظ ١٤٩٨/٤ – البداية ١٩١/١٤

٥- الإمام الحافظ المؤرخ والمفسر أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي الشافعي صاحب تفسير القرآن العظيم والبداية والنهاية في التاريخ، توفي ٧٧٤هـ [١].

تواضعه وصفحه عن مبغضيه:

يقول ابن القيم رحمه الله: سمعت شيخ الإسلام يقول: العارف لا يرى على أحد حقا، ولا يشهد على غيره فضلا، لذلك لا يعاتب ولا يطالب ولا يضارب[٢].

حاله مع خصومه:

أما حاله مع خصومه فعجيبة، قال ابن القيم: "وما رأيته يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم. وجئت يوما مبشرا له بموت أكبر أعدائه، فنهرني وتنكّر لي واسترجعثمّ قام من فوره غلى بيت أهله فعزّاهم، وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه الى مساعده إلا وساعدتكم فيه".[٣]

ويقول ابن القلانسي: "إن ابن تيمية حدثه قال: إن السلطان استفتاه في قتل بعض القضاة بسبب ما كانوا تكلموا فيه، وأخرج بعضهم فتاوى بعزله من الملك، وإنهم قاموا عليك وآذوك أنت أيضا. وأخذ يحثه بذلك على أن يفتيه في قتل بعضهم، ففهمت قصده بذلك فأخذت في تعظيم أولئك العلماء والقضاة وأنكر أن ينال أحد منهم بسوء. وقال له: إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم. فقال: إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مراراً. فقلت له: من آذاني، فهو في حل ومن آذى

---

[1] - شذرات الذهب ٢٣١/٦ – الدرر الكامنة ٣٩٩/١
[2] - مدارج السالكين ٤٩٦/١
[3] - مدارج السالكين ٣٤٥/٢

الله ورسوله، فالله ينتقم منه وأنا لا أنتصر لنفسي. ومازلت به حتى حلم عنهم السلطان وصفح".

ويقول ابن كثير: "كان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول: ما رأينا مثل ابن تيمية حرضنا عليه فلم نقدر عليه، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا".[1]

جرأته في قول الحق:

يقول الإمام الذهبي رحمه الله: "وكان قوالا بالحق نهاء عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، ذا سطوة وإقدام، وعدم مداراة". [2]

ومن تلك المواقف الجريئة في الصدع بالحق، حثّه السلطان الناصر على القدوم إلى الشام ومواجهة التتار. وقال له: "إن تخليتم عن الشام ونصرة أهله، والذب عنهم فإن الله تعالى يقيم لهم من ينصرهم غيركم، ويستبدل بكم سواكم"، وتلا قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التوبة ٣٩). وكان القاضي يومها تقي الدين بن دقيق العيد، فاستحسن ذلك، وأعجبه هذا الاستنباط[3].

ومن تلك المواقف، أن السلطان الناصر جاءه من أخبره بأن شيخ الإسلام يريد ملكه فاستدعى السلطان شيخ الإسلام وقال له: "أُخبرتُ أن في

---

[1] - البداية والنهاية ٥٤/١٤ – العقود الدرية ٢٨٢

[2] - ذيل تاريخ الإسلام ص٢٣٠

[3] - ذيل طبقات الحنابلة ٣٩٢/٢ – البداية والنهاية ١٥/١٤

نفسك أخذ الملك". فرد عليه شيخ الإسلام بصوت عال سمعه من حضر: "أنا أفعل ذلك! والله ن ملكك وملك المغل لا يساوي عندي فلسين"، فتبسم السلطان وقال: "إنك والله لصادق، وإن الذي وشى بك إلي كاذب".[1]

موقفه مع قازان سلطان التتار:

يذكر الشيخ ابن الانجا كيف واجه شيخ الإسلام قازان سلطان التتار الذي أراد دخول دمشق، وكيف أنّ شيخ الإسلام رفع صوته عليه ومع ذلك قازان يستمع حتى قال: "إني لم أر مثله، ولا أثبت قلبا منه، ولا أوقع من حديثه في قلبي".[2]

أسس المنهج الدعوى عند ابن تيمية:

- حرصه على وحدة الأمة:

من قواعد الدين العظيمة تأليف القلوب، وإصلاح ذات البين، واجتماع الكلمة، قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ﴾ (الأنفال ١).

وقال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ (آل عمران ١٠٣)

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ (آل عمران ١٠٥).

---

[1] - الأعلام العلية ص٧٢

[2] - الكواكب الدرية ٢٥

فهم مقاصد الشريعة عند ابن تيمية:

قال رحمه الله: "من استقرأ الشريعة في مواردها ومقاصدها وجدها مبنية على قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة ١٧٣)، وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة ٣)

فكل ما احتاجه الناس في معاشهم، ولم يكن سببه معصية – كترك واجب أو فعل محرم– لم يحرم عليهم لأنهم في معنى المضطر الذي ليس بباغ ولا عاد".[1]

دقته في ترتيب الأولويات:

قال الإمام ابن القيم رحمه الله سمعت شيخ الإسلام يقول: "مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان معي، فقلت له: إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء تصدهم الخمر عن قتل النفوس، وسبي الذرية وأخذ الأموال فدعهم".[2]

يدل هذا الفعل على فهم أصيل لمقاصد الشريعة التي من أجلها حرم الله الخمر، لأنها تضر بالعقل فتضيعه فيصبح صاحبه كالمجنون، فتتصرف جوارحه بالغريزة الحيوانية بعد أن تجرد من الإنسانية بسبب شربه لما ضيع عقله وأذهب لبّه ومع ذلك، من كان حاله كهؤلاء المجرمين الذين يقتلون المسلمين اذا صحوا من سكرتهم، فلا مانع إذا من العمل على إبقائهم في حالة الإغماء،

[1] - مجموع الفتاوى ٢٩٤/٣
[2] - إعلام الموقعين ٣/٣

وتمديد أمد هذه الحالة قدر الإمكان؛ لأنّ فى ذلك مصلحة محققة للمسلمين، بينما في عودتهم الى وعيهم قتل وخراب وانتهاك محقف للحرمات.

إنّه فقه للواقع نحن بأمس الحاجة إليه اليوم، لنستفيد من تجارب الماضين، ونتعلم منهم الفهم الصحيح لواقع كثر فيه القيل والقال، وتَحدّث في الحلال والحرام من ليس بأهله.

جواز ترك واجب لفعل أوجب، أو السكوت عن مفسدة لدفع الأفسد:

يقول رحمه الله: "فإذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما، فقُدِّم أوكَدهُما، لم يكن الآخر في هذه الحال واجبا، ولم يكن تاركه لأجل فعل الأوكد تارك واجب في الحقيقة، و كذلك إذا اجتمع محرمان لا يمكن ترك أعظمهما إلا بفعل أدناهما، لم يكن فعل الأدنى في هذه الحال محرما على الحقيقة. وإن سمي ذلك ترك واجب، وسمي هذا الفعل محرما باعتبار الاطلاق لم يضره. ويقال في مثل هذا: ترك الواجب لعذر، وفعل المحرم للمصلحة الراجحة أو الضرورة أو لدفع ما هو أحرم [1] (أشد حرمة)".

ولنا فيما ذكر رحمه الله قصة عمار بن ياسر رضي الله عنه، عندما خيره كفار قريش بين سب رسول الله صلى الله عليه و سلم، أو القتل فاختار الأول، ثم ذهب الى رسول الله صلى الله عليه و سلم و أخبره الخبر، فقال له رسول الله صلى الله عليه و سلم: "إن عادوا فعد"، وبذلك أقره صلى الله عليه و

[1] - الفتاوى ٢٠/٥٧

سلم على ما فعل. ففِعل عمار فيه حرمه غير أنه دفع به ما هو أشد حرمة و هو قتل النفس.

كذلك لو أنّ إنسانا علم بمجيء سيل جارف على بيت من بيوت المسلمين، وحاول إخبار أهل البيت فلم ينتبهوا، فدخل إليهم وفيهم رجال ونساء قد يكونون كاشفي العورات نظرا لوجودهم في بيتهم، فاطلاعه على العورات حرام، غير أنّ إنقاذ أرواح هؤلاء أعظم من الاطلاع على العورات. ففعل المحرم الأدنى في هذه الحالة واجب لدرء المحرم الأكبر وهو إزهاق الأنفس.

الخلاف في فروع الفقه لا يفرق:

يقول رحمه الله: "وأما الاختلاف في الأحكام فأكثر من أن ينضبط، و لو كان كلّما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا، لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوّة" [1].

واستنكر استنكارا شديدا لما يجري من تقاطع وتدابر نتيجة الخلاف في بعض مسائل الفقه الفرعية، فقال: "فأما صفة الصلاة، ومن شعائرها مسألة البسملة، فإنّ الناس اضطربوا فيها نفيا وإثباتا في كونها آية من القرآن وفي قراءتها، وصنّفت من الطرفين مصنفات يظهر في بعض كلامها نوع جهل وظلم مع أنّ الخطب يسير، وأمّا التعصب لهذه المسائل ونحوها فمن شعائر الفرقة والاختلاف الذي نهينا عنه" [2].

---

[1] - مجموع الفتاوى ١٧٣/٢٤

[2] - القواعد النورانية الفقهية ص ٤٢

والمتأمل واقع المسلمين، يجد فيه كثيرا ممّا وصفه شيخ الإسلام بأنّه خطب يسير وأنّه من شعائر الفرقة التي نهينا عنها، ومع الأسف نجد أنّ بعض من يدعي أنّه على طريقة شيخ الإسلام قد جعل هذه الفروع في كثير من الأحيان بمثابة الأصول، فدعا لها وحمل على من لم يهتم بها بأنه تارك للسنة، ومضيّع لما كان عليه السلف الصالح، بل إنّ بعضهم قاطع إخوانه المسلمين وهجرهم من أجل ذلك، وبدلا من أن يجمع، فرق وأضعف لحمة المسلمين التي يجب أن يقويّها.

فأين هؤلاء من فهم شيخ الإسلام رحمه الله؟ وهو القائل: "وليست هذه المسألة – في ما علمت – مما يوجب المهاجرة والمقاطعة؛ فإن الذين تكلموا فيها قبلنا، عامتهم أهل سنّة واتباع، وقد اختلف فيها من لم يتهاجروا ويتقاطعوا" [1].

كما اختلف الصحابة في قضية رؤية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لربه ليلة المعراج، فمنهم من قال: رأى ربه، ومنهم من نفى ذلك، حتى قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية" [2].

ومع هذا فما أوجب هذا النزاع تقاطعا ولا تهاجرا.

---

[1] - مجموع الفتاوى ٥٠٣/٦

[2] - اخرجه البخاري رقم ٣٢٣٤ ومسلم ١٧٧

وكان الصحابة والتابعون إذا تنازعوا في الأمر، اتبعوا أمر الله تعالى في قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ (النساء٥٩)

اختلاف درجة العمل باختلاف الظروف:

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "العمل الواحد يكون فعله مستحبا تارة وتركه تارة، باعتبار ما يترجح من مصلحة فعله وتركه بحسب الأدلة الشرعية، والمسلم قد يترك المستحب إذا كان في فعله فساد راجح على مصلحة، كما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم بناء البيت على قواعد إبراهيم، وقال لعائشة: "لولا أن قومك حديثوا عهد بجاهلية لنقضت الكعبة، ولألصقتها بالأرض، ولجعلت لها بابين: بابا يدخل الناس منه، وبابا يخرجون منه"، فترك النبي صلى الله عليه وسلم هذا الأمر الذي كان عنده أفضل الأمرين؛ للمعارض الراجح وهو حدثان عهد قريش بالإسلام لما في ذلك من التنفير لهم، فكانت المفسدة راجحة على المصلحة.

لذلك استحب الأئمة: أحمد وغيره أن يدع الإمام ما هو عنده أفضل، إذا كان فيه تأليف المأمومين. مثل أن يكون عنده فصل الوتر أفضل؛ بأن يسلم بالشفع ثم يصلي ركعة الوتر، وهو يؤم قوما لا يرون إلا وصل الوتر، فإذا لم يمكن أن يتقدم إلى الأفضل كانت المصلحة الحاصلة بموافقته لهم بوصل الوتر أرجح من مصلحة فصله مع كراهتهم للصلاة خلفه...".

إلى أن قال: "فهذه الأمور وإن كان أحدها أرجح من الآخر، فمن فعل المرجوح فقد فعل جائزا وقد يكون فعل المرجوح أرجح للمصلحة الراجحة، كما يكون ترك الراجح أحيانا لمصلحة راجحة، وهذا واقع في عامة الأعمال؛ فإنّ العمل الذي هو في جنسه أفضل، قد يكون في مواطن غيره أفضل منه" [1].

متى تكون مخالفة الكفار في الهدى الظاهر:

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: "إن مخالفة الكفار لا تكون إلا بعد ظهور الدين وعلوه؛ فلما كان المسلمون في أول الأمر ضعفاء، لم يشرع المخالفة لهم، فلما كمل الدين و ظهر وعلا، شرع ذلك. ومثل ذلك اليوم: لو أن المسلم بدار حرب أو دار كفر غير حرب، لم يكن مأمورا بالمخالفة لهم في الهدي الظاهر لما عليه في ذلك من الضرر، بل قد يستحب للرجل أو يجب عليه أن يشاركهم أحيانا في هديهم الظاهر، إذا كان في ذلك مصلحة دينية، من دعوتهم إلى الدين، أو الاطلاع على باطن أمرهم لإخبار المسلمين بذلك، أو دفع ضرر عن المسلمين و نحو ذلك من المقاصد الصالحة" [2].

رحم الله شيخ الإسلام، فكأنه ينظر إلى واقعنا اليوم، بعد أن ازدحمت الدول الغربية والأمريكتين بشباب الإسلام، وشاباته المنفيين من بلادهم بسبب موقف أرادوا فيه عزة الإسلام؛ من نصيحة لأصحاب الشأن، أو مشروع إصلاح تحكم فيه الشريعة أو كلمة حق عند سلطان جائر، فحكم عليهم بالسجن، أو

---

[1] - مجمع الفتاوى ١٩٥/٢٤

[2] - اقتضاء الصراط المستقيم ص١٧٦

بالقتل أو بالابعاد أو بقطع الأرزاق؛ من طرد من الوظيفة، وإخراج، وإيقاف عن العمل... إلخ.

فخرج هؤلاء إلى أمم كافرة، ولكن وجدوا عندهم - مع الأسف - الأمان الذي لم يجدوه في بلادهم، كما وجدوا عندهم العمل، والإخلاص فيه، وأن الإنسان يكرم من حيث هو إنسان، بغض النظر عن جنسه أو لونه أو جنسيته، ووجدوا هناك التعليم الذي حرموا منه في بلادهم، كما وجدوا نظاما يشمل الجميع فلا يطبق على زيد و يعفى منه عبيد بل الكل سواسية أمام القانون، وإذا وجدت موهبة عند إنسان (ما) عملوا على تعزيزها بينما يعمل البعض في بلادنا على وأدها في مهدها، بل البعض من المتنفذين يخاف من كل إنسان مبدع، أو مخترع، أو صاحب عقلية فذة فيها الابتكار والتجديد.

بهذا الأسلوب استطاعت هذه الدول الكافرة أن تستدرج أفضل العلماء والباحثين المسلمين، لتستفيد من خبراتهم، وتبني بهم مجدها العلمي والحضاري وتقدمهما، في حين أنّ دولهم كانت أولى بهم، غير أنّها فرطت بهم، فتركوها، وهاجروا، فأخذت أمريكا والغرب خبراتهم. لذلك نجد اليوم أمثال: د. فاروق الباز و هو مسلم مصري الجنسية يشرف على ناسا المشروع الفضائي الأكبر في العالم في الولايات المتحدة الأمريكية. و د. محمد البرادعي وهو مسلم مصري الجنسية يشرف على المنظمة الدولية العالمية لمراقبة المنشآت النووية، وغيرهما الكثير، من الأطباء، والمهندسين، والفيزيائيين، والكيميائيين، والتجار، والصناع، والزراعيين...

هاجروا، وتركوا بلدانهم التي لم تنصفهم. والهجرة أقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أن اشتد أذى قريش على المسلمين في مكة، فنكلت بهم، وعذبتهم لأنهم قالوا: "ربنا الله" وكفروا بالأصنام والأوثان التي يعبدها المشركون فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه) [1].

وهكذا أقر رسول الله صلى الله عليه وسلم الهجرة من بلد المنشأ، وبلد الآباء والأجداد، إلى بلاد أخرى بعيدة يجد فيها المؤمن العدل بدل الظلم الذى يعيش فيه، والصدق بدل الكذب والمراوغة التى شاهدها فى بلده، فكانت الدفعة الأولى من المهاجرين اثني عشر رجلا، وأربع نسوة، على رأسهم عثمان بن عفان، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفى الهجرة الثانية، كانوا ثلاثا وثمانين رجلا وتسع عشرة امرأة.

والإسلام لم يمنع المسلم من الالتجاء إلى كافر إذا كفل هذا الكافر حمايته من أعدائه الذين يتربصون به، فرسول الله صلى الله عليه وسلم عندما كان في مكة، واشتد أذى المشركين عليه رضي بجوار عمه أبي طالب، وعندما رجع من الطائف بعد وفاة عمه أجاره المطعم ابن عدي، وعندما رأى أبو سفيان المطعم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: "أمجير أنت أم تابع؟". قال: "بل مجير". قال: "إذًا لا نخفر ذمتك"[2].

---

[1] - سيرة ابن هشام ج١ ص٣٤٣

[2] - ابن كثير البداية والنهاية ج٣ ص٦٢٦

وكذلك عندما رأى أبو بكر الصديق الهجرة إلى الحبشة لقيه ابن الدغنة فقال: "إلى أين؟" قال: "أهاجر" قال: "مثلك لا يَخرج ولا يُخرج، وأنت في جواري". فرجع أبو بكر رضي الله عنه إلى جوار ابن الدغنة. [1]

إنّ ما ورد عن شيخ الإسلام في هذا الباب، لم ينقله كثير ممن يدعي أنه على نهجه إلى الناس، بل نقلوا العكس تماما؛ فقد أخبرني من عاش في جامعة عريقة تعتز بحمل فكر شيخ الإسلام، وتدافع عنه، فقال: لم أسمع يوما من أحد الأساتذة هذه المعاني عن شيخ الإسلام، وإنما سمعت كل ما فيه شدة وعنف، وعدم قبول رأي الآخر، حتى ظننت أنّ شيخ الإسلام هو من أسس تنظيم القاعدة أو طالبان. وهذا مخالف للواقع ومخالف لمنهج وفِقْه شيخ الإسلام.

لو أن إنسانا قال اليوم للمسلمين الذين يعيشون في الغرب – ومعظمهم كما قلنا مهاجرون هاربون من ظلم أنظمة حكمت شرع البشر واستبعدت شرع الله بل حاربته بكل جزيئاته، حرم الله الربا فأحلوه في البنوك على أنه فائدة والله تعالى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾ (البقرة ٢٧٥).

[1] - سيرة ابن هشام ج١ ص٣٩٦

حرم الله الزنا[1]، فأحلوه من أجل السياحة وجلب العملة الصعبة، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء ٣٢).

حرم الله الخمر،* فأحلوه [2] وبيع في الفنادق والحانات، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (المائدة ٩٠-٩١).

أباح الله التعدد .ومنعت إحدى الدول العربية التعدد[3] كما منعت الفتيات المحجبات من دخول المدارس والجامعات والهيئات الحكومية، والله تعالى يقول: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ (النساء٣).

لو أنّ عالمًا اليوم أفتى للمهاجرين المسلمين في بلاد الكفر بعدم مخالفة أهل البلاد في النهدي الظاهر، لقامت عليه الدنيا وما قعدت. بل لقد شنّع كثير ممن يدعون بأنهم يمثلون مبادئ شيخ الإسلام على من سمح بمشاركة أهل الكتاب

---

[1] - أخبرني رجل أمن التقيت به في حج عام ١٤٣٠هـ وهو موظف في إحدى الدول العربية على رأس جهاز مكافحة الدعارة (الزنا). ففرحت أن دولة مثل هذا البلد الذي يسكنه خليط من المسلمين والنصارى ومع ذلك يكافح (الزنا) بل شكل جهازا لذلك، فقال محدثي لا تتعجل فأنا أكافح من ليس لديهم رخصة رسمية وأكثر هؤلاء يأتين من رومانيا فينافسن الأخريات بأسعارهن المتدنية وكذلك يحملن أمراضا جنسية كالإيدز والسفلس وغيرها، لأنهن يعملن بلا رخصة ولا رقابة من وزارة السياحة، فتلاشى فرحي المؤقت وعلمت أن هذه الدول قننت الرذيلة بقوانين وجعلت على كل من تمارس هذه المهنة الحقيرة رسوما شهرية تدخل بميزانية الدولة (فتخيل مالا من ممارسة الفاحشة يدخل لميزانية الدولة فكيف يبارك الله فيه؟).

[2] - ذكرت صحيفة النهار اللبنانية في عددها ٢٢٣٤٣ تاريخ ٢٠٠٨/٥/٥ أن رجلا واسمه عبد العزيز الإبراهيم كان يملك فندقا في دولة عربية اسمه (غراند حياة) ثم هداه الله وحج وبعد الحج ألغى الخمر من فندقه فجاءته وزارة السياحة بخطاب لتقول له وفقا للقانون أن فندقه سينخفض من فئة خمس خمس نجوم إلى نجمتين ذلك أن الفنادق فئات خمس وأربع وثلاث ملزمة بتقديم الخمور، هذا في دولة عربية دينها الإسلام حسب نص دستورها.

[3] - يذكر الدكتور علي جريشة في كتابه (حاضر العالم الإسلامي) أن رجلا من إحدى دول المغرب العربي لم يرزق بذرية من زوجته الأولى فتزوج الثانية وكان يعمل في دولة خليجية ثم اضطرته الظروف للعودة إلى بلده، وهناك تعرض للمساءلة عن زوجته الثانية ثم أخذ للتوقيف لأن ذلك مخالف لنظام البلد، وفي مكان سجنه جاءه محام فقال له: إن أقررت أنك قد تزوجت اثنتين فقد يحكم عليك بالسجن شهورا طويلة، أما إذا قلت بأن الثانية خليلة فسوف تخرج بالبراءة، فقال الرجل: اتق الله هذه زوجتي على سنة الله ورسوله كيف أقول بأنها خليلة؟ فقال له المحامي: أنا بينت لك الواقع وماذا يقول القانون ثم تركه وشأنه، وحدد له موعد المحاكمة، ففكر الرجل وقال آخذ بقول المحامي ثم أرجع إلى حيث كنت، وأترك هذا البلد الظالم أهله! وفي يوم المحاكمة سأله القاضي: يا فلان أصحيح أن المرأة الثانية التي معك هي زوجتك؟ قال: لا يا حضرة القاضي إنها خليلة وليست بزوجة فدق القاضي بمطرقته وقال: حكمت المحكمة ببراءة المتهم. (انظروا كيف يحارب شرع الله).

أعيادهم أو ردّ السلام عليهم أو البدء بتحيتهم، حتى لو كانت غير تحية الإسلام.[1] ونسوا قول الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة ٨). والبرّ هو أعلى درجات حسن الخلق ومنه برّ الإنسان بأمه وأبيه. كما نسي هؤلاء أنّ التعاون مع غير المسلمين إذا حقق مصلحة إسلامية فهو مشروع، ودليل ذلك قول النبيّ صلى الله عليه وسلم في حلف الفضول الذي كان في الجاهلية: "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحبّ أنّ لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت"[2]

إن كلام شيخ الإسلام يجب أن يسطر بماء الذهب، عندما قال للمهاجر إلى بلاد الكفر: يجب ألا تخالف هؤلاء في هديهم الظاهر؛ لأنّ في ذلك حفظا له ولسلامته، وأدعى له أن يعرف هو ما يخبئه له الحاقدون من هؤلاء إن وُجدوا، وهم كثر اليوم ولاسيما بعدما حصل في السنوات القليلة الماضية، من تسليط الأضواء على المسلمين على أنهم إرهابيون، وأنهم يريدون أن يغيروا منهج الغرب نحو الأسلمة، مما دعا بعض الدول كفرنسا أن تمنع النقاب وكذلك الحجاب في جامعاتها ومدارسها على أنه استفزاز لعقائد النصارى وغيرهم من غير المسلمين.

واستغلت هذه الدعاية في ما يقوم به بعض المسلمين، من التمسك بزيهم العربي مما يجعلهم صيدا سهلا لأجهزة الأمن في تلك البلاد فتراقبهم، وتتبع كل خطواتهم، وهم ساهون، يزعمون أن هذا اللباس هو نصرة للإسلام، وإعلاء لشأنه، والحقيقة غير ذلك؛ لأنّ الإسلام ليس له لباس واحد، بل كل

[1] - كتب الشيخ (فيصل مولوي) موضوعا تحت عنوان: (السلام على أهل الكتاب)، فانتقده بعض من يقول بأنه يحمل فكر شيخ الإسلام.

[2] - سيرة ابن هشام ٩٢/١ ورواه أحمد ١٦٠٥ وصححه الألباني.

ساتر هو لباس إسلامي. ولقد حكمت الخلافة العثمانية خمسمائة سنة، ولم يكن لباس الأتراك مشابها للباس العرب فهل ضرهم ذلك؟

إن قصة اختطاف (أبي قتادة) وغيره في بلاد الغرب، – وهو من الذين يصرون على ظهورهم كمظهر مخالف لهؤلاء في عقر دارهم– قد أضرّ بالدعوة الإسلامية كثيرا، وأدخل عليها ما لم يكن في حسبانها فأصبح كل مسلم يلتقي به هؤلاء هو محل شبهة، وأحداث الحادي عشر من أيلول زادت الطين بلة، وكان الأولى لهؤلاء أن يستفيدوا مما علمهم إياه السلف الصالح، إلا أنَّ الواقع كان مخالفا لهدي السلف، وأوقعوا الجاليات الإسلامية في حرج شديد، حتى أصبح الشاب المتديّن يخاف من الذهاب إلى المساجد، وكذلك الفتاة المحجبة أصبحت تحت أنظار هؤلاء الذين يبحثون عن سبب لملاحقة الإسلام وأهله بزعم أنه دين يدعو إلى الإرهاب ومحاربة الآخر.

لقد فتح هؤلاء باب شرّ بسبب عدم فقه الواقع، بل عدم فقه ما دعا إليه علماء الإسلام أصحاب الخبرة والتجربة وبعد النظر.

واليوم بعض الدول الغربية استغلت هذه الأخطاء التي ألصقت بالإسلام، – وهو منها بريء– وبدأت حربا متدرجة ضدّ الإسلام، بدأ في فرنسا بمنع الحجاب، بدأ في الدنمارك بالرسوم الكاريكاتورية ضد سيد الخلق صلى الله عليه وسلم، واليوم فرنسا تمنع البرقع، ثم الحجاب تحت مسمى أنه من مظاهر التدين المخالف للآخرين. وتبعتهم سويسرا بمنع بناء المآذن لكونها مشهدا من

مشاهد الإسلام، وهناك من يطالب أيضا بمنع أذان الفجر في فلسطين المحتلة لأنه يزعج اليهود كما يزعمون، وهكذا تكر المسبحة...

ولا نقول إن السبب في ذلك كله يرجع إلى الذين لم يراعوا أنهم في دول كافرة، بل تصرفوا وكأنهم في دولة الإسلام، وأنهم يملكون زمام الأمور، ونسوا أن هؤلاء رغم الحرية والديمقراطية التي يرفعونها كشعار لنظامهم، إلا أن الماضي لم يُمحَ من أذهانهم، وهو أنّ الإسلام فتح بلادا مجاورة لهم، وأنّ له ميراثا عظيما وحضارة لم يعرفها التاريخ قبل الإسلام، وما عهد الأندلس عنهم ببعيد حيث بقي فيها المسلمون ثمانية قرون، حكموا فيها شرع الله، وأقاموا أعظم حضارة عرفها التاريخ. والغرب اليوم – بشهادة المنصفين منه – يعترف بهذه الحقيقة.

تقول (زيغريدهونكن) في كتابها: (شمس العرب تسطع على الغرب) وهو كتاب حافل ومليء بمنجزات الحضارة الإسلامية، وشواهد الإنصاف من خلال الاعتراف بفضلها. ومن ذلك قولها: "أجل إن في لغتنا كلمات عربية عديدة، وإننا لندين- والتاريخ يشهد على ذلك – في كثير من أسباب الحياة الحاضرة للعرب" وقولها: "أردت أن أكرّم العبقرية العربية، وأن أتيح لمواطنيّ فرحة العودة إلى تكريمها، كما أردت أن أقدم للعرب الشكر على فضلهم والذي حرمهم من سماعه طويلا تعصب أعمى أو جهل أحمق"[1].

[1] - شمس العرب تسطع على الغرب- زيغريد هونكن ص٩

كذلك ما ذكره العالم (روجر بيكون) بقوله: "حتى الآن، يشكر علماء الطبيعة في أوروبا العرب على إدخال طريقة التجربة العلمية التي دلت على التطور الحديث في جميع الميادين"[1]

إنّ الخوف من الإسلام قائم، وكان الأولى بالعرب والمسلمين الذين هاجروا إلى دول الكفر أن يعطوا أهل البلاد ما علمهم الإسلام من خلق حسن، وصدق في المعاملة، وإنتاج في العمل، وروعة في صفاء العقيدة ونقائها، وأسلوب رائع في حسن الدعوة إلى الله. قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ (النحل ١٢٧).

وقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم - والخطاب عام لأمته - : ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ (آل عمران ١٥٩).

هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو خير الخلق، فكيف بغيره من الناس؟ إنّ الذين ذهبوا إلى بلاد الكفر، وجاهروا بعدائها، وهم ضمن أنظمتها، ويعيشون على أرضها، وهم يظنّون أنّ بفعلهم هذا ينصرون دين الله، لا يفقهون شيئا كثيرا في فقه الدعوة، بل هؤلاء بتصرفاتهم أوقدوا نار الحرب من جديد ضد الرعايا المسلمين، وفتحوا باب شر لم يكن مفتوحا على مصراعيه. فالمسلم العاقل الذي كان يعمل بصمت وحسن تصرف لنشر دعوة الإسلام بين مواطني تلك الديار، أصبح ملاحقا بسبب سوء تصرف من زعموا أنهم على كتاب الله وسنة رسوله، وإنّ هناك مدارس لتعليم اللغة العربية والقرآن الكريم أصبح مضيقا عليها، وبعضها أقفل بسبب تصرّف أناس لم يحسنوا أسلوب

[1] - قالوا عن الإسلام- د. عماد الدين خليل ص٣٣٦

الدعوة، ولم يعملوا للإسلام كما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم، وإنما كانت المظاهر التي لا طائل تحتها هي الغالبة، بينما رأينا آخرين عملوا بصمت، وأنتجوا، بل أقاموا مؤسسات ومشاريع عملاقة أصبحت دعامة للعمل الإسلامي في تلك البلاد، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: بنك التقوى الإسلامي الذي أقامه الأستاذ (يوسف ندا) (مصري) في سويسرا، والكلية الإسلامية الأوروبية التي أقيمت بجهود الشيخ (فيصل مولوي) (لبناني)، والشيخ (يوسف القرضاوي) (مصري) في فرنسا وهي خاصة بأبناء الأوروبيين، والمركز الإسلامي الكبير في (آخن) في ألمانيا والذي أقامه الأستاذ (عصام العطار) (سوري) وغيرها الكثير. فما من دولة في أوروبا، أو أستراليا، أو أمريكا إلا وفيها مراكز إسلامية، أقامها أناس أحسنوا التصرف؛ فعملوا بصمت وإخلاص، فأثمرت جهودهم، وأينعت ثمارها، حتى أصبح هناك جيل إسلاميّ من أبناء تلك البلاد، ولم يعد الإسلام طارئا ينسب إلى المهاجرين، بل أصبح وجوده أصيلا من خلال أتباعه من أبناء تلك البلاد. وفرق كبير بين من أحسن التصرف فأينعت ثمرته جيلا مسلما انبعث من جاهلية حديثة تحمل كل أنواع الغواية، يرفع راية الإسلام عالية خفاقة، وينادي بمليء فيه: هذا علاج أمراض الأمم التي تتخبط في الأمراض النفسية، والناتجة عن الجهل بوجود الله والأمراض الصحية التي فتكت بجسد هؤلاء، لوقوعهم فيما حرم الله من زنا ولواط وشرب للمسكرات، وأمراض اجتماعية فككت الأسر، وشردت الأبناء، فلم تعد هناك رابطة تربط الأب بابنه، ولا الابن بأبيه، وكذلك البنت بأمها، ولا الأم بابنتها فما بالك بالحفيد والجد؟

هذا أكبر أساقفة (كانتربري) في بريطانيا يصيح بأعلى صوته يقول للنصارى من أبناء جنسه: "إذا أردتم الحفاظ على الأسر من التفكك، والبعد عن أمراض الجنس من إيدز وسفلس وهربز وغيرها، فعليكم بالنظام الإسلامي الذي يحفظ هذا كله، فقام عليه رجال الكنيسة حتى اتهمه بعضهم بأنه أسلم سرًا دون أن يعلن ذلك جهرا، وطالبوا بإقصائه عن مركز أكبر أسقف كنسي في كانتربري، وكان ذلك عام ٢٠٠٧ للميلاد، ولقد بثت الإذاعة البريطانية BBC وكذلك تلفزيونها عدة حلقات عن هذا الموضوع، واستضافت كبير الأساقفة نفسه ودافع عن رأيه بكل موضوعية، وقال بأنّه لم يسلم، وأنه متمسك بدينه، ولكن هذا لا يعني ألا يقول الحق، ودعا الذين هاجموه واستنكروا دعوته أن يقرأوا نظام الأسرة في الإسلام قبل أن يعترضوا على شيء يجهلونه.

إن الإسلام دين الفطرة، ولو عرض على أيّ إنسان نزيه، بعيد عن التعصب، وخال من عقدة الخوف، لتقبله دون تردد أو وجل، وما دخول جنوب شرق آسيا (إندونيسيا، ماليزيا، تايلندا، الفلبين) في الإسلام، إلا من خلال أخلاق ومعاملة التجار المسلمين، الذين رأوا فيهم الخير والحق والعدل والأخلاق الحميدة، فدخلوا في دين الله أفواجا دون قتال أو قتل، وإنما بقناعة كاملة بأن هذا هو الدين الحق الذي يجب اتباعه، والذي ارتضاه الله لعباده، هكذا تفعل الدعوة الهادئة المبنية على التبشير لا التنفير، وعلى التيسير لا التعقيد، أما الذين جعلوا الإسلام فزاعة أخافوا منها الناس، فهؤلاء أساؤوا إلى الإسلام من حيث لم يعلموا، وهدموا بعض ما بناه غيرهم ممن سبقوهم بالدعوة هناك.

إن الذي يظهر الإسلام على أنه قطع رؤوس، وإقامة حدود فقط من قطع الأيدي، ورجم الزناة، أو جلدهم، فهذا مشوّه لحقيقة هذا الدين، فالإسلام دين الرحمة، دين المودة، دين التعاطف دين الإنسانية، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ (الحجرات ١٣).

هذا الدين الذي ساوى في أول مجتمع أسسه في المدينة المنورة بين بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، إلى جانب أبي بكر العربيّ، وابن عباس القرشي، لحريّ به أن يسد الباب على من يدعي الحضارة، ويزعم أنه أول من أعطى الإنسان حريته وحقوقه الدينيه والمدنية، وهذا لا يكون إلا بدعاة يعرفون الأساليب النبوية في حسن عرض الدعوة، فقد ملك رسول الله صلى الله عليه وسلم القلوب قبل أن يملك النفوس، وكانت سيرته العطرة قد هيأت الناس لقبول دعوته، وهو الذي لقبه قومه بالصادق الأمين قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم، فما بال بعض الناس اليوم يدعون أنهم على سنته ويخالفون طريق دعوته؟

لقد طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكعبة، وحولها ثلاثمائة وستون صنما، ولم يعمد إلى كسر أي منها، ولما فتح الله عليه مكة - بعد أن أقام دولة الإسلام في المدينة، وعاد إلى مكة فاتحا - عمد إلى الأصنام فكسرها صنما صنما، وهو يقول: "وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا" فكسرت الأصنام من الوجود، بعد أن فقدت معناها من النفوس، وخرجت من القلوب التي كانت تعشعش فيها إلى غير رجعة.

ولو كسر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأصنام في مكة قبل نشر دعوته، لبنى أهل مكة أضعاف ما كسر، إذ ما الفائدة من تكسير هياكلها الخارجية وهي منقوشة في داخل قلوبهم؟ إنّه الفقه الذي خفي على بعض الدعاة، فاستعجلوا الثمرة قبل نضوجها، فضاعت الثمرة وضاع الجهد المبذول ، دون فائدة ترجى.

رحم الله شيخ الإسلام عندما نظر إلى الأمور بمنظار الواعي الحصيف الذي يحرص على سلامة المسلمين، وبقاء دعوتهم في بلاد الكفر، لأن وجود الدعوة هي من وجود الداعي فإذا لم يكن هناك دعاة فمن أين تأتي الدعوة؟

كان رحمه الله ذا عقلية منفتحة، متقد الذهن، رحب الأفق، ينظر إلى الأشياء بفراسة المؤمن، ويرى من خلالها ما قد يحدث في مستقبل الأيام، فكان يستعين في حياته بحسن صلته بالله، فألهمه الله رشده ونور بصيرته وأزاح عنه الحجب التي حالت بين الناس وبين ورؤية الحقيقة، فرأى ما لم يره غيره، من أحوال المسلمين، فعزم على التغيير، وكان ثمرة ذلك كله هذا المنهج المتكامل الذي امتد إلى جوانب الحياة، فكان منها:

الجانب السياسي:

عمل على بناء مفهوم واضح للحكم، وذلك من خلال بيان حقيقة هامة هي أنه لا يكفي أن تكون الدولة قوية في إدارتها فقط، وإنّما يجب أن تنسجم هذه الإدارة مع المفاهيم الشرعية، والقواعد الثابتة في كتاب الله، وسنة رسوله

صلى الله عليه وسلم، فكتب رحمه الله كتابيه: (الحسبة) (والسياسة الشرعية) اللذين تضمنا حقوق الراعي والرعية، وكيف قامت الدولة الإسلامية، ونظام الشورى، ونظام الحسبة، ومحاربة الرشوة التي كانت قد بدأت بالانتشار بين موظفي الدولة[1].

أسلوبه في استمالة أمراء المماليك من أجل تحكيم الشريعة:

أقام شيخ الإسلام علاقات قوية مع أمراء المماليك، والسلطان الناصر، وعمل على إقناعهم بمنهج الكتاب والسنة في الحكم، حتى أصبح عنده أتباع منهم وتلاميذ من هؤلاء:

زين الدين كاتوبغا المنصوري الذي كان يحكم حماة، وأرغون الناصري الذي تولى نائب السلطان في مصر، والأمير سلار نائب السلطان الناصر، والأمير حسام الدين مهنا الذي أخرج شيخ الإسلام من السجن سنة ٧٠٧هـ معظما له ومكرما، والسلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي عاد للسلطنة بعدما قتل الجاشنكير الجركسي، وكان أول عمل له إطلاق سراح شيخ الإسلام من منفاه في الاسكندرية[2].

موقفه من الاجتهاد والتقليد:

وفي دعوته إلى فتح باب الاجتهاد ونبذ التقليد، فقد سلك في ذلك منهجا متزنا فقال:

---

[1] - محمد السيد الوكيل: استمرارية الدعوة ٩٤

[2] - دعوة شيخ الإسلام ٨٦/١

"وتقليد العاجز عن الاستدلال للعالم، يجوز عند الجمهور، واتباع شخص لمنهج شخص بعينه لعجزه عن معرفة الشرع من غير جهته، إنما هو مما يسوغ له".

ويوضح الأسباب التي تبيح التقليد للأئمة فيقول: "لما كان من الأحكام ما لا يعرفه كثير من الناس، رجع الناس في ذلك إلى من يعلمهم، لأنه أعلم بما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم وأعلم بمراده" إلى أن يقول: "وإن الاجتهاد جائز للقادر على الاجتهاد، والتقليد جائز للعاجز عن الاجتهاد"[1]

وهذا كلام فيه الإنصاف والاعتدال، كما أنه ردّ على الذين يزعمون أن اتباع إمام من الأئمة هو تعصب مذهبي، حتى لو كان من إنسان عامي لا علم له.

أهمية العمل الجماعي عند شيخ الإسلام:

يقول رحمه الله: "يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس، من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها؛ فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم" (رواه أبو داود من حديث أبي هريرة)[2].

وروى الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم" فأوجب تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في

---

[1] - مجموع الفتاوى ٢٠/ ٢٢٤

[2] - مجموع الفتاوى٢٨/ ١٣٦

السفر، تنبيها بذلك على سائر أنواع الاجتماع، ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وأمارة".[1]

فهم الواقع ومعايشة الأحداث:

على الداعية الناجح أن يبذل الجهد المطلوب لفهم حقيقة الدين، واستيعاب نصوصه ومقاصده على الوجه المرتجى. وعليه أن يفهم أحوال المدعوين، وأنماط المتغيرات والمستجدات في حياتهم وواقعهم، لأنّ الطرق الصحيحة لتغيير واقع الناس لا تكون إلا بدراسة مشاكلهم والعمل بإخلاص لحلها.

فالداعية الحكيم النابغ هو الذي يحسن تشخيص الأدواء والعلل، ثم يضع لها الدواء المناسب من المظان المعصومة، فيسوق من الحق الإلهي ما يقوم به المعوج الإنساني بلباقة وفقه، ويرسل من العظات ما يكون دواء حاسما لما يحسه الناس في أنفسهم من حيرة واضطراب[2].

وقد كان شيخ الإسلام ذلك الداعية العالم المتمتع بدقة الفهم للدين، فقد ألان الله له العلوم كما ألان لداود عليه السلام الحديد، كما قال ابن الزملكاني أن الداعية الحق لا يجوز له أن يعيش في غيبوبة عما يحدث للمسلمين من حوله، "د كانت عيني شيخ الإسلام مفتوحة على كل شؤون المسلمين، وعلى ما .انون في مواطنهم الأصلية، فهو حين حاصر التتار دمشق عام ٦٩٩هـ خاف أهل البلد، وهرب الأمراء والحكام، وأصبحت دمشق بلا قائد ولا نظام، فوقف

---

[1] - مجموع الفتاوى٢٨/ ٣٩٠

[2] - مع الله لمحمد الغزال ص١٩٥

شيخ الإسلام موقف الأبطال، وجمع كبار من بقي في البلد واتفق معهم على ضبط الأمور، وذهب لمقابلة قازان وطلب منه فك الحصار عن البلد وأخذ الأمان منه لأهلها.

وكذلك ما جمعه للمتطوعين، وتدريبهم على السلاح، ومشاركته في معركة (شقحب) ومتابعته لكثير من الأمور في شتى بلاد المسلمين إلا دليل عملي على ذلك.

فقد كان مؤمنا بأنّ الوقت هو الحياة، وأن كل لحظة تمر دون عمل فهي خسارة لايمكن تعويضها، لأن ما يمضي من الحياة لا يمكن استرجاعه، ويؤمن بأن الله هو المعين، وأن ما دونه إنما هي أسباب ظاهرة يسخرها لمن يشاء من عباده، والعون والنصر في الحقيقة من الله عز وجل[1].

إصلاحه للعامة:

حرص شيخ الإسلام على إصلاح عامة الناس من خلال تعليمهم لأمور دينهم، فقد شرع أمور الإسلام وشرائعه، وحرص في أثناء ذلك على تقديم بعض الأولويات، فقد كان يقوم على شرح المفاهيم الأساسية للإسلام من خلال غرس العقيدة الصحيحة في قلوب السامعين، وبيان شبهات المنحرفين والرد عليها، ويشرح أحكام العبادات، ويعلمهم أحكام الجهاد فقهاً وتطبيقاً من خلال مشاركته في المعارك ضد التتار ومن آزرهم.

إصلاحه للعلماء:

---

[1] - استمرارية الدعوة. محمد السيد الوكيل ص٧٨

من خلال تذكيرهم بواجبهم، والقيام بما كلفهم به الله، فقد كان العلماء كثيرين، ولكنهم في مجال العلم للدعوة والإصلاح قلة، لم يكن يميز البعض منهم عن العامة إلا علم ملأ عقولهم، ولكن لم يحرك وجدانهم، ومناصب شغلت حياتهم، ولكنها شلت حركتهم، وقرب من السلاطين والحكام أورثهم فخرا وتيها، ولكنه أسكت ألسنتهم، وقد كانت كلمة هؤلاء العلماء متفرقة، والنزاع والفرقة قد ملأت قلوبهم، وكان كل وزير يصطفي لنفسه عالما يقربه ويدنيه، وقد يغضب عليه لأمر ما فيقصيه وينفيه، حتى أصبح هؤلاء لعبا في أيدي الحكام، لا يرون فيهم جلال العلم ولا يجدون فيهم هيبة العلماء، وقد عمل شيخ الإسلام في إبعاد العلماء من مراكز القوى، واستعطافهم للحصول على المناصب، مبديا اعتراضه على تقبيل الأيادي، والانحناء بين أيديهم من أجل حفنة من المال، تجري بين أيديهم[1].

إصلاحه للحكام و الأمراء:

كان شيخ الإسلام زاهدا فيما بين أيدي الحكام والأمراء، فلم يطلب لذاته شيئا، ولم يطمع يوما في منصب، وكان يرفض عطاياهم، ومع ذلك دعا الناس إلى طاعة أولي الأمر، وعدم معصيتهم إلا إذا عصوا أمر الله، فلا طاعة لهم عند ذلك.

ويوم أن حاصر التتار دمشق، ذهب إلى السلطان، واستحثه على مواجهة التتار، وشدد عليه في الكلام، وكان مما قاله: "لو قدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه، واستنصركم أهله وجب عليكم النصر، فكيف وأنتم حكامه

[1] - استمرارية الدعوة

وسلاطينه، وهم رعاياكم وأنتم مسؤولون عنهم"، ثم قال: "إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته، أقمنا له سلطانا يحميه ويحوطه"[1].

ومن ذلك أيضا، حثه السلطان على تحرير حملة لمحاربة أهل الجبل الذين أعانوا الأعداء ضد المسلمين.

ومن ذلك، محاربته لظاهرة الرشوة المنتشرة بين الأفراد وأصحاب المناصب في الدولة، وحثه السلطان على الكتابة لعماله أن لا يولي أحد بمال أو رشوة.

وبهذا يتبين أنّ شيخ الإسلام لم يجامل أحدًا في الحق عالما كان أو حاكما، بل كان همّه إقامة الإسلام والشريعة في نفوس الناس كما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإعادة دولة الإسلام قوية فتيّة كما كانت في عهد الخلفاء الراشدين.

عقبات في طريق شيخ الإسلام:

أهم هذه العقبات، الفرية التي نشرها مخالفوه واتهموه بها على أنه مجسمٌ، واتهموه بالتجسيم، لأنه أثبت من الصفات لله تعالى ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم.

[1] - البداية والنهاية: ١٤/ ٣٣

كذلك اتهم بأنه يمنع زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم لأنه استدل بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد..."، فمن جاء إلى مسجده صلى الله عليه وسلم، فتصبح زيارته لقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلام عليه وعلى صاحبيه أمرا حثت عليه أخلاق الإسلام.

كذلك اتهم بالخروج على الإجماع بقضية اعتبار الطلاق بالثلاث في مجلس واحد طلقة واحدة.

السجن والاعتقال:

كان نصيب شيخ الإسلام وافرا من السجون، فقد سجن في مصر وفي الشام، وتم سجنه في عام ٦٩٣هـ، ثم اطلق سراحه بعد وقت قصير، ثم سجن عام ٧٠٥هـ في سجن برج القلعة، وبقي إلى عام ٧٠٧هـ ثم أطلق سراحه، ثم سجن عام ٧٠٨هـ إلى عام ٧٠٩هـ، ثم سجن عام ٧١٨هـ إلى عام ٧١٩هـ، ثم سجن عام ٧٢٠هـ إلى عام ٧٢١هـ، ثم أعيد إلى السجن عام ٧٢٢هـ، ثم خرج ليعود سنة ٧٢٦هـ إلى سجن القلعة في دمشق، وبقي فيها إلى أن توفاه الله في السجن عام ٧٢٨هـ[1].

كيف واجه شيخ الإسلام العقبات:

كان رحمه الله يملك الصبر على البلاء، واحتساب ذلك عند الله تعالى.

[1] - البداية والنهاية ١٤/٥٤- مجموع الفتاوى ٣/ ١٦٠- الذيل على طبقات الحنابلة ٢/ ٣٩٦

قال الامام ابن القيم: "سمعت شيخ الإسلام يقول: إن في الدنيا جنة يعني بها جنة الإيمان بالله، وبما جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة".

ويقول ابن القيم: "قال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة".

ثم يقول ابن القيم: "وعلم الله، ما رأيت أحدا أطيب عيشا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشا، وأشرحهم صدرا، وأقواهم قلبا، وأسرهم نفسا، تلوح نضرة النعيم على وجهه" إلى أن يقول رحمه الله: "وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض، أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب عنا ذلك كله، وينقلب انشراحا وقوة ويقينا وطمأنينة، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها"[1].

شيخ الإسلام و مواصفات أهل الحق:

يقول: ليس لأولياء الله تعالى شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات، فلا يتميزون بلباس دون لباس إذا كان كلاهما مباحا، ولا بحلق شعر أو تقصيره أو جعله ظفرا (أي تطويله)، ويستشهد بالمثل المعروف

[1] - الوابل الصيب ص٤٤- العلماء العذاب ص١٧٦

(كم من صدِّيق في قباء، وكم من زنديق في عباء)، وهؤلاء موجودون في جميع أصناف الأمة: في أهل العلم، وأهل القتال، وفي التجار والصناع والزراع[1].

ثم يقول رحمه الله: "إن العمل إذا كان خالصا لله تعالى ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لله، لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا، فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، وذلك تحقيق قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾" (الكهف ١١٠)

ثم يقول رحمه الله: "إن هناك صفات لابد للداعية الناجح أن يتصف بها وهي العلم، والرفق، والصبر، العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده".

ويقول رحمه الله: "كما أن العقوبات شرعت داعية إلى فعل الواجبات، وترك المحرمات، فقد شرع أيضا كل ما يعين على ذلك، فينبغي تيسير طريق الخير والعطاء والإعانة عليه، والترغيب فيه بكل ممكن، من ثناء وبذل مال أو غيره ولهذا شرعت المسابقة بالفروسية لما فيها من الترغيب بإعداد القوة ورباط الخيل للجهاد في سبيل الله"[2].

آراء شيخ الإسلام الفقهية واختياراته:

كان لشيخ الإسلام رحمه الله آراء فقهيه كثيرة، لم يلتزم بالقول أو الإفتاء بها مذهبا فقهيا معينا، وإن كانت هذه الاختيارات لا تخرج عن أقوال الفقهاء الأربعة في مذاهبهم إلا قليلا.

---

[1]- مجموع الفتاوى١١/ ١٤٩

[2] - مجموع الفتاوى ٢٨/ ٣٧٠

يقول الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله: "لقد كان أساس اختيار شيخ الإسلام يدور حول أقطاب ثلاثة:

أولها: القرب من الآثار؛ فهو حريص على ألا يختار غرائب الفقه، بل يختار ما له اتصال أوثق بمصدره.

ثانيها: القرب من حاجات الناس ومألوفهم، وتحقيق مصالحهم والعدالة فيهم؛ فإنه بعد استيثاقه من الاتصال بين الحكم والمصدر الشرعي- من كتاب أو سنة – يختار الأعدل والذي يلائم العصر، ويتفق مع الحاجيات.

ثالثها: تحقيق المعاني الشرعية التي شرعت لها الأحكام؛ فهو على ذلك جد حريص في كل ما يختار ويفتي ويعلن من آراء[1].

نماذج من اختياراته:

أ. عدم إعطاء الزكاة للعاصي:

قال رحمه الله: "ولا ينبغي أن تعطى الزكاة لمن لا يستعين بها على طاعة الله، فإن الله تعالى فرضها عونا على طاعته لمن يحتاج إليها من المؤمنين، كالفقراء والغارمين، أو لمن يعاون المؤمنين، فمن لا يصلي من أهل الحاجات لا يُعطى شيئا حتى يتوب ويلتزم أداء الصلاة".[2]

ب. إعطاء الزكاة للوالدين:

---

[1] - ابن تيمية، أبو زهرة ص٤٠٦

[2] - الفتاوى الكبرى ٤/ ٤٥٦

يقول رحمه الله: "ويجوز صرف الزكاة إلى الوالدين وإن علوا، وإلى الولد وإن سفل، إذا كانوا فقراء وهو عاجز عن نفقتهم؛ لوجود المقتضى السالم عن المعارض الممانع، وهو أحد القولين في مذهب أحمد".[1]

ج. خدمة المرأة لزوجها:

يقول رحمه الله: "وتجب خدمة المرأة زوجها بالمعروف من مثلها لمثله، ويتنوع ذلك بتنوع الأحوال؛ فخدمة البدوية ليست كخدمة القرويّة، وخدمة القويّة ليست كخدمة الضعيفة"[2]

من مفرداته وغرائبه:

١. أن الحدث يرتفع بالمياه المعتصرة، كماء الورد ونحوه.

٢. لا حد لأقل الحيض ولا لأكثره، ولا لأقل الطهر بين الحيضتين، ولا لسن اليأس من الحيض، وإن ذلك راجع لما تعرفه كل امرأة من نفسها.

٣. إن تارك الصلاة عمدا لا يجب عليه القضاء وإنما يكثر من النوافل، وإن القصر يجوز في قصير السفر وطويله – كما هو مذهب الظاهرية – وأن سجود التلاوة لا يشترط له الطهارة.

٤. جواز طواف الحائض إذا لم يمكنها أن تطوف طاهرا ولا شيء عليها – كما في مذهب الأحناف إلا أن عليها ذبح شاة –.

---

[1] -الفتاوى الكبرى ٤٥٦/٢

[2] - الفتاوى الكبرى ٥٦١/٢

٥. جواز بيع الأصل بالعصير، كالزيتون بالزيت، والسمسم بالسيرج.

٦. أنه من أكل في شهر رمضان معتقدا أنه ليل وكان نهارا لا قضاء عليه – وهو رأي لعمر بن الخطاب رضي الله عنه –.

٧. أن الحاج المتمتع يكفيه سعي واحد بين الصفا والمروة، كما هو في حق القارن والمفرد –وهو قول لابن عباس رضي الله عنه –.

٨. أن المسلم يرث الكافر الذمي.

٩. أن طلاق الثلاث بلفظ واحد لا يقع إلا واحدة. – وهوالحكم الذي كان عليه العمل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وشطر من خلافة عمر رضي الله عنه –[1].

وفاة شيخ الإسلام رحمه الله:

خلال وجوده في سجن القلعة اشتد به المرض لأكثر من بضعة وعشرين يوما، واستمر به الحال حتى وافاه الأجل[2] في ٢٠ من شهر ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ، كما قال عامة المؤرخين.

وكان موته في سحر ليلة الاثنين، فذكر ذلك مؤذن القلعة على المنار، وتكلم بها الحراس على الأبراج، فما أصبح الناس إلا وقد تسامعوا بهذ الخطب، فبادر الناس إلى الاجتماع حول القلعة من كل مكان، وفتح باب القلع

[1] - ذيل طبقات الحنابلة ٤٠٦/٢- شذرات الذهب ٨٤/٦- ٨٥

[2] - العقود الدرية: ٣٦٨

لمن يدخل من الخواص والأصحاب والأحباب، واجتمع حشد عظيم من الخاصة والعامة يدخلون إليه أفواجا يزورونه، ومنهم من كان يقبل رأسه وناصيته التي كان يسجد بها ساعات طوال لربه الديان.

وأذن للنساء بعد الرجال لزيارته، ثم خرج الجميع وتولى جمع من العلماء غسله، منهم: الحافظ المزي، وجماعة من كبار الصالحين الأخيار أهل العلم والإيمان[1].

ثم صُلي عليه أولا بالقلعة، وتقدّم في الصلاة عليه أولا الشيخ محمد بن تمام، وأخرجت الجنازة بعد الصلاة، وغصت الطرقات بالناس، حتى وصلت الجنازة قرابة الظهر إلى المسجد، ووضعت في الجامع والجند قد أحاطوا بها يحفظونها من الناس من شدة الزحام، وقد صاح من بين الزحام صائح يقول: هكذا تكون جنائز أئمة السنة، فتباكى الناس وضجّوا عند سماع هذا الصائح. وبعد صلاة الظهر صُلي عليه في المسجد الأموي وقد صلى عليه الشيخ علاء الدين الخرّاط، ثم خرج الناس من كل مكان إلى أن ضاقت الرحاب والأزقة والأسواق بأهلها، وأغلقت الأسواق والمتاجر والناس في بكاء وتهليل، حتى النساء من فوق الأسطحة يبكين ويقلن هذا العالم.

وقدّر عدد من حضر جنازته بمائتي ألف، والنساء منهن خمسة عشر ألف امرأة، ولم يعهد مثل هذا الزحام في تاريخ دمشق إلا في زمن بني أمية حين كانت دمشق دار الخلافة[1].

---

[1] - البداية والنهاية ١٤/ ١٣٥

وعندما وصلت الجنازة إلى سوق الخيل، وُضعت هناك، وتقدم للصلاة عليها أخوه زين الدين عبد الرحمن، ثم حُمل إلى مقبرة الصوفية حيث دُفن إلى جانب أخيه شرف الدين عبد الله رحمهما الله تعالى.

قال ابن رجب: وصلي عليه صلاة الغائب في غالب بلاد الإسلام القريبة والبعيدة حتى في بلاد اليمن والصين، وأخبر المسافرون أنه نودي بأقصى الصين للصلاة عليه يوم الجمعة: الصلاة على ترجمان القرآن[2].

وقال أبو حفص البزار: وما وصل خبر موته إلى بلد – في ما نعلم – إلا وصلي عليه في جميع جوامعه، خصوصا أرض مصر والشام، والعراق، وتبريز، والبصرة وغيرها[3].

ثناء العلماء عليه رحمه الله:

يقول الإمام الشوكاني: "جعل الله له من ارتفاع الصيت وبعد الشهرة ما لم يكن لأحد من أهل عصره، اعترف العلماء بقدره، واشتهر بينهم غاية الاشتهار"[4].

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: "إن ثناء حشد من الناس على رجل لا يعتبر دليلا على قبوله عند الله، واستقامته وعلو منزلته، أما اذا شهد له رجال العلم والبصيرة، وأصحاب الصلاح والتقوى في عصره، فلا شك أنه يعتبر دليلا

---

[1] - البداية والنهاية ١٤٠/ ١٣٧ العقود الدرية ٣٨٥- الشهادة الزكية ٦٣
[2] - الذيل على طبقات الحنابلة ٢/ ٤٠٧
[3] - الأعلام العلية ٨٥- تذكر الحفاظ للذهبي١٤٩٦
[4] - طلب العلم للشوكاني ص١٤

على قبوله وعلو منزلته، وهذا كان شأن شيخ الإسلام فقد شهد لفضله وصحة اعتقاده وسلامة عقيدته، ومكانته العالية، كبار رجال العلم والبصيرة، وأصحاب الصلاح والرشاد في عصره، واعترفوا بعلو منزلته في ذلك فمدحوه وأثنوا عليه"[1].

ويقول الإمام ابن دقيق العيد: "لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلًا العلوم كلها بين عينيه، يأخذ منها ما يريد ويدع منها ما يريد"[2].

ويقول الإمام محمد بن علي الزملكاني: "كان إذا سئل عن فنّ من العلم ظنَّ الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن. وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه. ولايعرف أنه ناظر أحدا فانقطع معه. وكانت له اليد الطولى فى حسن التصنيف، وجودة العبارة، والترتيب والتقسيم والتبيين، يقول الإمام أبو الفتح، محمد بن سيد الناس: "ألفيت شيخ الإسلام ممن أدرك من العلوم حظًا، وكاد أن يستوعب السنن والآثار حفظا؛ إن تكلم فى التفسير، فهو حامل رايته، أو أفتى فى الفقه، فهو مدرك غايته، أو ذاكر في الحديث، فهو صاحب علمه، وذو روايته، أوحاضر بالملل والنحل، لم ير أوسع من نحلته فى ذلك، ولا أرفع من درايته"[3].

يقول الإمام ابن قيم الجوزية: "أحيا الله بشيخ الإسلام من السنة ما كان دارسا، فقمع به زيغ الزائغين، وشكّ الشاكّين، وانتحال المبطلين، وصدقت به

---

[1] - ابن تيمية للندوي ص١٦٧

[2] - ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ١٩٢ الكواكب الدرية ورقة٣ – الشهادة الزكية ص٢٩

٧-العقود الدرية ٧-٨ الرد الوافر ١٠٧ المختصر فى اخبار البشر لابن الوردى ٢-٤٠٦

[3] - الشهادة الزكية ص٢ ، الرد الوافر ص٦٠.

بشارة رسول رب العالمين، يقول صلى الله عليه و سلم: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها).

ويقول صلى الله عليه و سلم: (يحمل هذا العلم عن كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين). إنه الشيخ العلامة الزاهد، الناسك، العابد، الحافظ، تقي الدين أبو العباس"[1].

يقول الإمام المفسر عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي: "كان شيخ الإسلام من كبار العلماء، وممن يخطئ و يصيب، ولكن خطأه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في بحر لجي، وخطؤه أيضا مغفور له كما في صحيح البخاري: (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر)[2]. فهو مأجور في كلا الحالتين[3]".

يقول الإمام أحمد علي بن حجر العسقلاني – وهو من أئمة الشافعية– : "وشهرة إمامة الشيخ تقي الدين ابن تيمية أشهر من الشمس، و تلقيبه بشيخ الإسلام في عصره باق إلى الآن على الألسنة الزكية، وسيستمر غدا كما كان بالأمس، ولا ينكر ذلك إلا من جهل مقداره، أو نجنب الإنصاف، فما أغلط من تعاطى ذلك وأكثر عناده، فالله تعالى المسؤول أن يقينا شرور أنفسنا

---

[1] - الشهادة الزكية ص٣٤، الرد الوافر ١٢٢.
[2] - أخرجه البخاري ٣١٧/١٣ ومسلم ١٧١٦.
[3] - الرد الوافر ص١٦٦، البداية والنهاية ١٤٠/١٢.

وحصائد ألسنتنا بمنه وفضله، فكيف وقد شهد له بالتقدم في العلوم، والتميز في المنطوق و المفهوم، أئمة عصره من الشافعية وغيرهم، فضلا عن الحنابلة".[1]

يقول الإمام بدر الدين محمود أحمد العيني وهو من أئمة الحنفية: "هو الإمام الفاضل البارع، التقي النقي، الورع، الفارس في علمي الحديث والتفسير، و الفقه والأصول، بالتقرير والتحرير، والسيف الصارم على المبتدعين، والحبر القائم بأمور الدين، والأمار بالمعروف والناهي عن المنكر، ذو همة وشجاعة وإقدام في ما يردع ويزجر، كثير الذكر والصوم والصلاة والعبادة، خشن العيش والقناعة، من دون طلب الزيادة"[2]

يقول الإمام جلال الدين السيوطي الشافعي: "ابن تيمية، الشيخ، الإمام، الحافظ، الناقد، الفقيه، المجتهد، المفسر البارع، شيخ الإسلام، علم الزهاد، نادرة العصر، تقي الدين أبو العباس أحمد ابن المفتي شهاب الدين عبد الحليم، ابن الإمام المجتهد، شيخ الإسلام، مجد الدين عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم، الحراني، أحد الأعلام، عني بالحديث، وخرج وانتقى، وبرع في الرجال، وعلل الحديث وفقهه، وفي علوم الإسلام وعلم الكلام، وغير ذلك. وكان من بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين والزهاد"[3].

يقول الشيخ أبو الحسن الندوي: "من أهم أسباب علو شأن شيخ الإسلام، وجلالة قدره، وبلوغه في العلم والفقه والاستنباط مبلغا عجز عنه

---

[1] - الرد الوافر ٢٢٨، والشهادة الزكية ٧٢.
[2] - الشهادة الزكية ٧٧، الرد الوافر ٢٦١
[3] - طبقات الحفاظ ٥٢٠

علماء عصره، لأن شيخ الإسلام كان قد سبق زمانه، وفاق بعبقريته وعقليته الجبارة أقرانه، فكانت لديه مقدرة عجيبة في البحث والتنقيب، واستخراج النكات البديعة، واستنباط القواعد والأحكام من النصوص، حيث كان يتغلغل في أعماقها وسبر أغوارها"[1].

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة: "إن الرجل الذي يختلف الناس في شأنه بين إعلاء وإهواء، لابد أن يكون رجلا كبيرا في ذات نفسه، عظيما في خاصة أمره، له عبقرية استرعت الأنظار، واتجهت إليها الأبصار، فيكون له الوالي الموالي، والعدو المتربص المؤاخذ، الذي يتبع الهفوة، ويحصي السقطات، وكذلك كان ابن تيمية، قد كان عظيما في ذات نفسه، اجتمعت له صفات لم تجتمع في أحد من أهل عصره، وهذه الميزة أدركها البعض فعظموا شأن الشيخ، وجحدها البعض واستيقنتها أنفسهم، فطعنوا فيها"[2].

قال الحافظ البزار: وما رأيناه يذكر شيئا من ملاذّ الدنيا ونعيمها، ولا كان يخوض في شيء من حديثها، ولا يسأل عن شيء من معيشتها، بل جعل همه وحديثه في طلب الآخرة وما يقرب إلى الله تعالى"[3].

---

[1] -ابن تيمية للندوى١٣٩

[2] - المرجع السابق ١٥٣

[3] - الاعلام العلية ٣٣

لقد كان له ف
المسلمين – رضي ا
عالي الهمة، يعيش
مجتمعه، وما يحيط م
وعرف العدو فأعد ال
في تشخيصه للأمور
الصحابة الكرام، عاملا
مكانته بين العلماء الأ
الصالحات، وصلى الله و

الخاتمة :

يقول شيخ الإسلام عن نفسه، وموقفه من خصومه: "هذا وأنا في سعة صدر لمن يخالفني؛ فإنه إن تعدى حدود الله فيّ بتكفير أو تفسيق أو افتراء أو عصبية جاهلية، فأنا لا أتعدى حدود الله فيه، بل اضبط ما أقوله وأفعله، وأزنه بميزان العدل، وأجعله مؤتما بالكتاب الذي أنزله الله وجعله هدى للناس، حاكما في ما اختلفوا فيه.

قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ (البقرة ٢١٣)

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ (النساء ٥٩)

وقال تعالى : ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (آل عمران ١٢٠) ".

وأضاف رحمه الله: "وإنك ما جزيت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه" [1]

[1] - الشيخ محمد حسنين مخلوف – ديوان

[1] - مجموع الفتاوى ٣-٢٤٥

النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، طبعة فؤاد عبد الباقي.

الهاشمي، عبد المنعم، ابن تيمية العالم الجريء، طبعة دار ابن كثير.

الهلالي، مجدي، فقه الأولياث في الإسلام، دار التوزيع والنشر.

الوكيل، محمد السيد، استمرارية الدعوة، طبعة دار المجتمع للنشر والتوزيع.